أين صنيعهم... من هدي التوراة كما أنزلت

كلما أوغل اليهود في العصر الحاضر، في دعوى الانتساب إلى التوراة في العقيدة والفكر، وما اخترعوا افتراء على نصوصها من مبشرات، تؤول بهم إلى اغتصاب حقوق المسلمين ظلماً وعدواناً، وكذلك يفعلون صباح مساء.. كلما أوغلوا هذا الإيغال في هذه الدعوى التي سَداها ولُحمتها الزور والبهتان.. ذكر المؤمن ما كشفت عنه نصوص الكتاب والسنة – وأيدته الوقائع – من مجافاتهم لما جاءت به التوراة، وتجاوزهم لما جاء صريحاً فيها.

والعهد قريب بما كنا بصدده في شأن العبث الذي مارسه واحد من مقدّميهم، وحبر بارز من أحبارهم، في شأن الاحتكام إلى الرسول ﷺ كيما يرى رأيه في يهودي منهم اقترف جريمة، يعاقب عليها بالرجم.

ولقد وقع منهم ما حكم القرآن؛ بأنه خروج على الإيمان وكفر صريح، والذي وقع: هو التولي عن حكم الله الذي جاءت به التوراة، والاحتكام إلى الهوى وتسويلات الشيطان، إرضاء للظالمين والمفسدين في المجتمع، على حساب ما أنزل الله من حكم في هذا الشأن الذي يساوم أحبارهم عليه.

وذلك قوله الله جل شأنه في سورة المائدة: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا**

اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المائدة: ٤٤].

وما من ريب في أن قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ... ﴾ الآية عام في اليهود وغيرهم، ولكنهم داخلون فيه دخولاً أولياً، لأن الواقعة التي أومانا إليها والتي تحمل محاولة طمس الحقيقة، والتولي عن حكم الله، كانت سبب النزول، لقد اخترعوا من عند أنفسهم شرعاً لم يأذن به الله؛ فكان ذلك إيذاناً بخروجهم عن دائرة الإيمان وأهله.

وقال جل شأنه في معرض ما كتب عليهم في التوراة، ووعيدهم على الخروج عليه: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [المائدة: ٤٥]. جاء بعد هذه الآية قول الله تباركت أسماؤه: ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [المائدة: ٤٦] نقرأ بعد ذلك في الآية السابعة والأربعين وهي التي ختمت بقوله تعالى: ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ وكانت مما أشار إليه حديث مسلم أيضاً.. نقرأ قوله سبحانه: ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [المائدة: ٤٧].

هكذا حملت تلكم الآيات الكريمات، ذلك التنديد بحكم اليهود

بغير ما أنزل الله، وإعراضهم عما جاءت به التوراة، إلى بديل من صنع أفكارهم الضالة المعادية للحق وأهله - وإن كان خصوص السبب - كما سبق - لا يمنع عموم اللفظ عند الجمهور - كما جاء التنديد بصنع أهل الإنجيل في انحرافهم عما أمروا به في كتابهم، وحكم القرآن الكريم على من لم يحكم بما أنزل الله، بما قرأناه في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٤]. وقوله سبحانه: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المائدة: ٤٥]. وقوله جل شأنه: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة: ٤٧].

ولسوف تظل هذه الكلمات النورانية من أوضح الأدلة على أن اليهود، حين يخونون العهد، فيعبثون بكتابهم ويعملون على طمس أحكامه، فأحرى أن يكونوا على ساحة التعامل مع غيرهم - وخاصة المسلمين - أكثر خيانة ومظاهرة للباطل على الحق. ولله الأمر من قبل ومن بعد...

﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾

الرحلة التي قطعها المسلمون – على صعيد التعامل مع اليهود الذين كانوا يجاورونهم في المدينة – إبان العصر النبوي ، وتَنَزُّل الكتاب العزيز، كانت – على قصرها الزمني – رحلة زاخرة بالعبر والدروس، عميقة الجذور في تاريخنا، لاتني تشير بأصبع البيان والتبيان، وما حملت من الثوابت، إلى موقع السلوك اليهودي من الحق والباطل، والدوافع العميقة لهذا السلوك، وما يصحب ذلك من استهتار بالقيم، حتى لو كانت تلك القيم من صميم كتابهم المنزل الذي يزعمون الاستمساك به، والحرص على الانتماء إليه في العقيدة والأخلاق والسلوك، ناهيك عن التشريع والأحكام!!

ومن صور هذا الذي زخرت به تلك الرحلة الغنية بالعطاء؛ ما وقفتنا عليه السنة المطهرة من أن عدداً من آي سورة المائدة تنزلت – والقرآن كله نورٌ وهدىً – بسبب ما اجترح اليهود من مخالفة عن أمر الله، ومحاباة الشرفاء والكبراء الذين تفشت فيهم الجريمة، محاباةً حملت الأحبار على ابتداع شرع لم يأذن به الله، فبدلاً من أن يخضعوهم للحق المنزل في التوراة، ويقيموا عليهم الحدَّ، كما يقيمونه على الضعفاء، أرضوهم بسخط الله، وجاء التنديد في تلك الآيات بهذا الصنيع المجافي للحق الذي نزل به الكتاب، الخارج على الأحكام الواضحة المنصوص عليها في التوراة، ولم يكن النصارى الذين استزلَّهم الشيطان أيضاً، بمنجاة من هذا الوعيد .

وكانت الآيات الكريمات صريحة في الإعلان عن براءة الإيمان وأهله من هذا الصنيع، وتقعيد القواعد التي تنير طريق المسلمين، كيلا يقعوا فيما وقع فيه غيرهم، مؤكدة الحكم بما أنزل الله، وأن من يتعدى حدود الله في ذلك، فهو خارج عن ملة التوحيد. والآيات التي نعني تبدأ بقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ...﴾ [المائدة: ٤٤] الآيات. وكان مما أشرقت به في شأن الحكم بما أنزل الله الوعيد الشديد على تركه: قوله جل شأنه: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٤]. وقوله سبحانه: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المائدة: ٤٥]. وقوله جل شأنه: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة: ٤٧] وليس من القول المعاد – وقد ضرب هذا المرض العضال بجرانه في كثير من بقاع العالم الإسلامي، ويحاول أهل الضلال ذوو الكلمة النافذة أن يثبّتوا عدم الحكم بما أنزل الله في فكر الأجيال على أنه هو المصلحة – ليس من القول المعاد – مضاعفة التذكير بأن الآيات المباركات الهاديات – كما تحمل التنديد والوعيد لأهل الكتاب من يهود ونصارى بسوء العاقبة في الدنيا والآخرة جزاء الحكم بغير ما أنزل الله – فإنها تحمل أيضاً تحذير المسلمين من أن يقعوا فيما وقع فيه المغضوب عليهم والضالون.

وأنت ترى أنه بعد الكلام على الواقع الذي ألمّ باليهود والنصارى تجاوزاً لحدود الله، وابتداعاً لشرع لم يأذن به الله، أسلمتنا الكلمة القرآنية إلى وضع القاعدة النورانية، التي تكرر ذكرها، على محور الهداية ثلاث

مرات، وبصورة متلاحقة، تؤكد مزيد الاهتمام في شانها ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ الآيات.

وإذا كان خصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ – كما أسلفت غير مرة – واللفظ عام هنا، فتناول هذه الآيات للمسلمين – بجانب كثير من النصوص الأخر في هذا الشأن والقرائن الواضحات –: أمر يقيني لا غبار عليه.

ثم إن الكلام عن أولئك المحرِّفين المبدلين المعرضين عما جاء في كتابهم المنزل – وقد جاء هذا في كتاب الله المنزل على صاحب الرسالة الخاتمة لأمة الشهادة على الناس – ليس قصصاً تاريخياً يروى للتسلية وتزجية الوقت في محاولة للانتصار على ساعات اليوم والليلة، عند التائهين الضائعين، ولكنه درس عظيم يأخذ مكانه الطبيعي في بناء الأمة المحمدية، بناءً متكاملاً على الإيمان والعلم والعمل، لكيلا تكون هنالك فجوة بين الإيمان والسلوك، فتكون العقيدة والشريعة بجانب، والتطبيق العملي بجانب آخر، كما صنع أولئك الكافرون. ولذلك جاء الوعيد على عدم الحكم بما أنزل الله بصيغة عامة وإن كان السبب خاصاً فكلمة «من» من أدوات العموم. وذلك واضح في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

وفي ضوء الواقع، وتطور أساليب التربية والتعليم، وما يجب أن يحسب حسابه؛ من الغزو الفكري والحرب المعلنة على الإسلام والمسلمين في كل ميدان: في ضوء ذلك كله تبدو الضرورة ملحة، في أن يأخذ

المسلمون حذرهم بمنهجية وموضوعية، وأن يدوروا مع الحق الذي أنزل به الكتاب حيث دار، بعيداً عن التقليد الأعمى، والوقوع في أحابيل اليهود ومن هم سدنة اليهود، والواقع الأليم الذي تعيشه أمتنا من جراء عدم الحكم بما أنزل الله، شاهد صدق على ما جاء التحذير منه والوعيد عليه.

ولعل مما يؤكد ذلك، أنه – دفعاً لأي توهم بأحقية اتباع التوراة أو الإنجيل بعد نزول القرآن – جاء بعد الآيات التي أوردناها والتي حملت – فيما حملت – التنديد بأهل الكتاب – لأنهم لا يعملون بما أنزل الله عليهم... جاء بعدها ما بين للأمة، أن القرآن مصدق للكتب التي أنزلت قبله، ولكنه هو الذي يجب أن يتبع فهو المهيمن والشاهد عليها، وأمر الرسول ﷺ أن يحكم بما أنزل الله فيه، لما أنه خاتم الكتب الذي أنزل على خاتم النبيين، وهو المهيمن الذي يحمل الشريعة الناسخة لما قبلها.

ذلكم قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾** ﴾ [المائدة: ٤٨].

اللهم وفق المسلمين للعمل الذي يرتفع بهم إلى أن يكونوا أهلاً لنصرك، وهم يواجهون اليهود وأعوانهم من أعداء الحق والإنسان، وأن يستأنفوا طريق العمل بالكتاب والسنة، مع إدراك للواقع وتقلبات الأيام والله المستعان..

وأهل الإنجيل أيضاً.. والقرآن مهيمن

ما أصاب المسلمين من الضعف والتخبط في التشريع والأحكام، في أكثر شؤون الحياة، وتبديل المُرقَّعيّات المستوردة – على هذا الصعيد – عاماً بعد عام، وما يلقى دعاة العودة إلى شريعة الله في الحكم والأخلاق والسلوك من عَنَتٍ.. كل أولئك يذكِّر بما وقع من الإعراض – في كثير من بقاع عالمنا الإسلامي – عن الاتعاظ بما وقفتنا عليه آيات من سورة المائدة، كان فيها بالغ العبرة، وتحديد المنهج الذي على الأمة أن تسلكه، كيما تأخذ موقعها في الفاعلية والتأثير والريادة بين أمم الأرض، ضمن ظروف محلية وعالمية معقدة، لا تخفى على ذي بصيرة.

وأعني بالآيات: تلك التي ندّدت بما جنح إليه اليهود من الإعراض عن ذكر الله وأحكامه في التوراة، واختراعهم من عند أنفسهم شرعاً لم يأذن به الله، والتي آذنت الخارجين على حكم الله المنزل في كتابه، بالكفر والظلم والفسق الذي هو – هنا – الخروج على طاعة الله والانصراف إلى طاعة الهوى والشيطان، إرضاءً لأهل الضلالة والمفسدين.

والملاحظ أن الآيات، لم تقتصر على التنديد باليهود – مع عموم ألفاظها – ولكنها أشركت في ذلك التنديد بسوء صنيعهم، أهل الإنجيل لكونهم سلكوا السبيل نفسها من الحكم بغير ما شرع الخالق الحكيم سبحانه وتعالى، معرضين عما جاء به الوحي من السماء، ذلك قول الله

تبارك وتعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة: ٤٧].

وقد جاءت هذه الآية بعد بيان أن الله أرسل عيسى بن مريم عليه السلام مصدقاً لما بين يديه من التوراة، وآتاه الإنجيل فيه هدىً ونور... كان ذلك في الآية السادسة والأربعين من سورة المائدة المومئ إليها حيث قال ربنا جلّ وعلا: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المائدة: ٤٦].

وفي أعقاب هذه الآية وما اتصلت به من قريب، جاء ما يبين أن الحكم بما أنزل الله، لا يختص بأمة دون أخرى، وأن على المسلمين – وهم أصحاب الرسالة الخاتمة – أن يحكموا بما أنزل الله في كتابهم الكريم، على نبيهم المصطفى عليه الصلاة والسلام.

وفي الوقت نفسه، عليهم أن يتنبهوا إلى قضية غاية في السعة والعمق، وهي أن لا يلتبس عليهم الأمر، فيظنوا أنهم – وقد أنزل عليهم القرآن – مطالبون بشيء مما في الإنجيل والتوراة، بعد أن توعد الله اليهود على عدم الحكم بما أنزل الله بالتوراة، وتوعد النصارى على عدم حكمهم بما أنزل الله في الإنجيل، وذلك بعد امتداحه لكل من الكتابين السماويين التوراة والإنجيل.

إنها قضية كبرىٰ، تأخذ حجمها المرموق في أصول العقيدة، ويجب على المسلمين التنبه إليها، وفقهها على الوجه الذي ينبغي. ذلكم ما هو

مقرر بداهة من أن القرآن الكريم – وهو خاتم الكتب السماوية – أنزله الله على عبده وخاتم رسله محمد عليه الصلاة والسلام، وأنه مصدق لتلك الكتب بلا ريب، ولكنه المهيمن عليها، ويحمل الشريعة الناسخة لما سبق من الشرائع.

هذه واحدة. وأما الثانية: فهي أن على الناس كلهم، أن يعملوا به وببيانه من حديث الرسول عليه الصلاة والسلام!! ألم تر إلى الكلمات المباركات تعلن إعلانها بمزيد من الوضوح والبيان، فتوجه القلوب والعقول إلى أن ذلك من مقتضيات الإيمان، ولا تدع ريبة لمستريب في أن العمل بأحكام هذا الكتاب الناسخة شريعته لما سبقها من الشرائع، هو الواجب الحتم؟

فبعد قوله تعالى في ختام الآية السابعة والأربعين: ﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾** ﴾ نقع على تلكم القضية المهمة التي نُلمح إليها: في قول الله جلت حكمته خطاباً لإمام الأنبياء وخاتم المرسلين نبينا محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾** ﴾.

فأنت ترى أن الله تعالى – لما ذكر التوراة التي أنزلها على موسى كليمه، ومدحها وأثنى عليها وأمر باتباعها، وتوعد اليهود على عدم

العمل بها حيث كانت سائغة الاتباع، وذكر الإنجيل ومدحه، وأمر أهله بإقامته واتباع ما فيه، وتوعدهم على عدم العمل بما جاء به، حيث كان سائغ الاتباع – شرع سبحانه في ذكر القرآن العظيم الذي أنزله على عبده ورسوله محمد عليه الصلاة والسلام فقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي بالصدق الذي لا ريب فيه أنه من عند الله ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي من الكتب المتضمنة ذكره ومدحه، وأنه سينزل من عند الله على رسوله المصطفى خاتم النبيين محمد ﷺ ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ وأصل الهيمنة الحفظ والارتقاب، فهو حاكم على ما قبله من الكتب وأمين وشاهد عليه، إذ إنه خاتمها، وأشملها، وأعظمها، حيث جمع الله فيه محاسن ما قبله وزاده من الكمالات ما ليس في غيره. فلهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها، فإليه المرجع ومنه يؤخذ شرع الله. وقد تكفل الله تعالى بحفظه بنفسه الكريمة فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩] وجاء بيانه في سنة المصطفىٰ عليه الصلاة والسلام.

إنها لأمانة في أعناق المسلمين، أن يقرؤوا ويتدبروا ويعملوا بيقظة ونفاذ بصيرة، وذلك صدق الإيمان، ودليل العقل عن الله تبارك وتعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام.

﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾

كان من حكمة الله تبارك وتعالى، وجميل رعايته للأمة المحمدية، أنه - جل شأنه - يُتبع الكشفَ عن خصال يهود ومن على شاكلتهم، والمنهج الذي يتبعونه في تعاملهم الضال مع أنبيائهم وما أنزل الله عليهم من كتاب، وما ينطوي عليه هذا السلوك الملتوي من الضلال.. يُتبع ذلك بما يضع أمة الإسلام على المحجة البيضاء؛ إيماناً وعملاً وسلوكاً، وما يسلك بها سبيل التأكيد لذاتيتها، ووجودها الحقيقي، بعيداً عن تقليد اليهود، والوقوع فيما وقعوا فيه من المآثم؛ وذلك من طريق ارتباطها بكتاب ربها، وبيانه من السنة، ارتباط عقيدةٍ وعمل.

كما أن هذا الكتاب- وهو القرآن الكريم - هو المهيمن: الرقيب والأمين والحافظ والشاهد على الكتب التي سبقته، وإليه المرجع، ومنه تؤخذ الأحكام، وتعرف الحقائق الثابتة عن اليهود ومن على شاكلتهم، فقد أنزله الله آخر الكتب، وجعله خاتمها وأشملها وأعظمها وأكملها، حيث جمع فيه محاسن ما قبله على محور التوحيد وإسلام الوجه لله، وزاد فيه من الكمالات ما ليس في غيره، من أجل ذلك جعله أميناً وشاهداً وحاكماً عليها كلها، وتكفل - عز سلطانه وجلت حكمته - بحفظه بنفسه الكريمة فقال سبحانه: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ وائتمن على بيانه نبيه المصطفى عليه الصلاة والسلام فقال تعالى: ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾

[النحل: ٤٤] وفي ذلك ما فيه من الخير العظيم، إيذاناً بوجود التميز للأمة بالحق، وإبعاداً لها عن التقليد الأعمى، والانزلاق الظالم فيما هو على النقيض من مقتضيات الإيمان، وحماية لها – أن لو تدبرت القرآن حق التدبر – عن أن يكون صنيعُها صنيعَ اليهود وأضرابهم في إعراضهم عما جاء، واختراعهم أحكاماً من عند أنفسهم، لا تمتُّ إلى الحق الذي نزل من عند الله بصلة.

وحرصاً على أن تأخذ هذه المقولة الإيمانية أبعادها في القلب والعقل، يبدو من الخير أن نسلك سبيل التأكيد والإحاطة – قدر المستطاع – فنذكّر مرة أخرى بواحدة من آي كتاب الله جرى إيرادها من قريب، ضمن الإشارة إلى ما هو من معالم الهداية، وما هو من معالم الضلال في مواجهة الوقائع بما يجب لها من أحكام الدين، ووقفنا على اليسير من معانيها، تلكم هي الآية الثامنة والأربعون من سورة المائدة التي يقول فيها ربنا، جل شأنه، مخاطباً النبي عليه الصلاة والسلام والأمة من ورائه، في تحديد للمنهج والسبيل الواجب أن تسلك على صعيد التشريع والبناء الحضاري: ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** ﴾.

هكذا بعد أن بين ربنا تبارك وتعالى، أنه أنزل القرآن مصدقاً لما بين يديه من الكتاب، ومهيمناً – أميناً وشاهداً وحاكماً على الكتب التي

سبقت – أمر نبيه ﷺ أن يحكم بين أهل الكتاب وسائر أهل الملل، بكتابه الكريم الذي نزله عليه وهو القرآن الذي خصه بشريعته، وجعلها ناسخة لما قبلها من الشرائع، وحذره أن يتبع أهواءهم عما جاءه من الحق بهذا القرآن فقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨].

وأنت ترى أن هنالك أمرين كلٌ منهما على غاية الأهمِّية: أما أولهما: فهو أن يحكم الرسول ﷺ بما أنزل الله. وأما الثاني: فهو أن يحاذر اتباع أهواء المشركين وأهل الكتاب – بعامة – واليهود منهم بخاصة، الذين كان همهم المكر والخداع ومحاولة التفلت من أحكام الله، كما ظهر ذلك في الكثير من مواقفهم. هانحن أولاء نقرأ عند الطبري شيخ المفسرين – رحمه الله – قوله عند الكلام على هذه الكلمات النيرات: (وهذا أمر من الله تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ أن يحكم بين المحتكمين إليه من أهل الكتاب وسائر أهل الملل بكتابه الذي أنزل إليه، وهو القرآن الذي خصه بشريعته، يقول تعالى ذكره: احكم يا محمد بين أهل الكتاب والمشركين بما أنزل إليك من كتابي وأحكامي، في كل ما احتكموا فيه إليك من الحدود والجروح والقَوَد والنفوس.. إلى أن يقول: فإني أنزلت إليك القرآن مصدقاً في ذلك ما بين يديه من الكتب، ومهيمناً عليه، رقيباً يقضي على سائر ما قبله من سائر الكتب قبلَه.

هذا عن الأمر الأول، وهو الأمر بأن تحكم بينهم بالقرآن، أما عن الأمر الثاني، وهو النهي عن اتباع أهواء اليهود: فالمعنى: ولا تتبع أهواء هؤلاء

اليهود الذين يقولون: إن أوتيتم الجلد في الزاني المحصن دون الرجم، وقتل الوضيع بالشريف إذا قتله، وترك قتل الشريف بالوضيع إذا قتله، فخذوه، وإن لم تؤتوه فاحذروا - لا تتبع أهواءهم عن الذي جاءك من عند الله من الحق - وهو كتاب الله الذي أنزله إليك - يقول له: اعمل بكتابي الذي أنزلته إليك إذا احتكموا إليك فاخترت الحكم عليهم، ولا تتركنّ العمل بذلك اتباعاً منك أهواءهم، وإيثاراً لها على الحق الذي أنزلته في كتابي. يقول ابن عباس - رضي الله عنهما - فيما روى عنه الإمام الطبري بسنده: فاحكم بينهم بما أنزل الله.. بحدود الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق.

ترى أي بيان يداني هذا البيان!! يضع أمتنا على طريق اليقظة والوجود الذاتي، وينأى بها - أن لو استقامت على صراط الله - عن أن تقع فيما وقع فيه اليهود فنالوا غضب الله، بل ينصرها عليهم وهم يصطنعون التحديات في كل ميدان..؟

إنه المنهج الرباني في الكتاب المعجز.

﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ... ﴾

كلما ازداد التبصُّر في صنيع يهود، وفي آثار الوقوع فيما توعدهم الله عليه، من الحكم بغير ما أنزل الله، ازدادت الحاجة إلى القراءة الواعية الخاشعة لكتاب الله، وإلى الصلة المتدبرة الباعثة على العمل به، والاستنارة ببيانه من سنة النبي ﷺ ونهجه العملي في تطبيق أحكامه. وفي استرشادنا بقبسات من سورة المائدة، السورة المدنية التي تنزلت والمسلمون على ثغور البناء والمواجهة، رأينا ما يجب من وضوح الرؤية، وتحديد المواقف، وكان من عطائها الذي لا يحده زمان ولا مكان: تقرير أن القرآن الكريم - وهو خاتم الكتب السماوية الذي أنزل على خاتم النبيين محمد عليه الصلاة والسلام - هو المهيمن: الأمين والشاهد والحاكم على ما سبقه من الكتب المنزلة، وأن الرسول عليه الصلاة والسلام، مدعوٌّ لأن يحكم بين اليهود والنصارى وسائر الملل - حين يحتكمون إليه- بما أنزل الله في الفرقان الحكيم، وأن لا يتبع أهواءهم عما جاءه من الحق الذي لا ريب في أنه الصدق المنزل من عند الله عز وجل...

وقد ختمت الآية بالدعوة إلى استباق الخيرات، بالعمل بالشرع الذي جاء به القرآن، وبيان أن معاد الناس ومصيرهم إلى الله يوم القيامة وهو - سبحانه - يجزي الصادقين بصدقهم، ويعذب الكافرين الجاحدين المكذبين بالحق العادلين عنه إلى غيره، كالذي فعلت يهود وأعوانها وما تزال... ذلكم قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ**

جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة: ٤٨] ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ في حومة الصراع بين الحق والباطل، وأمواج التحديات التي يواجهها المسلمون من داخل النفس، حيث الصوارف التي لا تخفىٰ، ومن خارجها، حيث الأعداء المتربصون... ما بدٌّ من العزيمة الصادقة التي تثمر المبادرة والحركة الدؤوب، في ميادين الخير وعمل الصالحات... أجل تثمر السبق في ميادين السباق إلى ما فيه مرضاة الله تعالى ورسوله، وعز الدنيا والآخرة، ومجانبة السلوك الضال الذي كان سمة اليهود، في تعاملهم مع التوراة.

هكذا في أعقاب الحقائق التي دلت عليها الآية الكريمة، يجيء الأمر بالاستباق والبدار الطيب المبارك، فبادروا أيها الناس إلى الصالحات من الأعمال والقرب إلى ربكم بالعمل الصادق المتجدد بما في كتابكم، فإنه إنما أنزله على نبيه ﷺ امتحاناً لكم وابتلاءً، ليتبين المحسن منكم الحريص على العمل بالمنزل، من المسيء الذي يتخذ الكتاب وراءه ظهرياً، فيجازي كلاً بعمله عندالمصير إليه، فإن إليه مصيركم جميعاً ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ وإذا كان المصير والمرجع إليه، فإنه – سبحانه – يخبر كل فريق منكم بما كان يخالف فيه الفرق الأخرى، وكم بين العاملين وبين المتبطلين من تخالف... وهنالك تكون كلمة الفصل؛ فالمستقيم على الطاعة المقيم حدود الله؛ إلى الجنة، والمسيء الضال عن الصراط السوي؛ إلى النار. هكذا يتبين المحق من المبطل، دونما لبس أو غموض.

وغير خافٍ أن الأمر يبلغ ذروته في توجيه المسلمين – وهم يديرون حركة الحياة على منهج الله – إلى أن يكونوا على أشد الحذر من الضيق أمام المعوقات والعقبات، كي يبلغوا بعملهم في تحقيق أهداف الرسالة، ما ينالون به النصر والتمكين في الدنيا، والسعادة الأبدية يوم يقوم الناس لرب العالمين .. ولا يكونوا كالمغضوب عليهم، الذين حالت رغبتهم في الانحراف والتحلل من نصوص التوراة، دونهم ودون العمل بما أنزل الله، فباؤوا بغضب على غضب، وللكافرين عذاب مهين.

على هذه الصورة الجلية الواضحة، يتبدى يومَ المعاد المحقُّ من المبطلِ بعد أن يتكشف هنا زيف مسلك اليهود، ودعاواهم الباطلة:.. وعلى المسلمين أن يكونوا على ذُكر من هذه الحقيقة، كي يكون بعدهم عن تقليد اليهود واستمساكهم بكتاب ربهم وسنة نبيهم، أمراً متجدداً في حياتهم على المدى... والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

يقول الإمام الطبري: (فإن قال قائل: أَوَ لم ينبئنا ربنا في الدنيا قبل مرجعنا إليه ما نحن فيه مختلفون؟ قيل: إنه بيَّن ذلك في الدنيا بالرسل، والأدلة والحجج، دون الثواب والعقاب عياناً، فمصدق بذلك ومكذب. وأما عند المرجع إليه، فإنه ينبئهم بذلك بالمجازاة التي لا يشكُّون معها في معرفة المحق والمبطل، ولا يقدرون على إدخال اللبس معها على أنفسهم، فكذلك خبره – تعالى ذكره – أنه ينبئنا عند المرجع إليه، بما كنا فيه نختلف في الدنيا. وإنما معنى ذلك: إلى الله مرجعكم جميعاً، فتعرفون المحق حينئذ من المبطل».

وبهذه القبسات من هدي الكلمة القرآنية في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ يتضح الانسجام الحكيم، بين ما ابتدأت به الآية الكريمة – وهي الآية الثامنة والأربعون من سورة المائدة – وما دلت عليه من معان كريمة وتوجيهات بالغة، وبين ما ختمت به.

ونعود إلى إيراد الآية مرة أخرى، كيما نستذكر ما وجهت إليه من صدق الاستمساك بالقرآن علماً وعملاً، فهو المهيمن على ما سبقه من الكتب المنزلة، وذلك بعد الذي كشفت عنه الآيات قبلها من ضلال يهود ومن هم على نهج يهود ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة: ٤٨].

والحمد لله الذي أنزل على عبده ورسوله محمد ﷺ الكتاب ولم يجعل له عوجاً، وله الفضل والمنة فيما نبه عليه من ضلال يهود، وحذر من كل ما هو من تصوُّرهم وسلوكهم بسبب.

﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾

سبحان الله.. وما أكثر دلائل الإعجاز في كتاب الله الكريم، حيث دلالات الواقع المؤكدة لما دلت عليه آياته المبينات، وهذا موعدنا مع توجيه قرآني للأمة، من خلال خطاب موجه إلى النبي عليه الصلاة والسلام بأن يشتد الحذر من تمويهات اليهود، ومحاولاتهم فتْنَ المسلم عن دينه، أو إدخال الشك إلى نفسه، في أحقية ما هو عليه من الهدى، وبطلان ما عليه اليهود والنصارى، من مخالفة لما جاء في التوراة والإنجيل.

وقصة ذلك أن النبي ﷺ وُجِّه إلى أن يحكم بين الذين يحتكمون إليه من اليهود – وقد كانوا في ضواحي المدينة – وغيرهم بما أنزل الله في قرآنه العظيم.

ومن الإعجاز الذي يؤكده واقع اليهود مع الناس – وخاصة المسلمين – أن النبي ﷺ حُذِّر – وهو المعصوم – من أن يفتنه اليهود – وهم المكَرَة المغضوب عليهم – عما جاءه من الحق الذي نزل به الوحي، إلى ما تهوى أنفسهم وتمليه أهواؤهم الضالة، وحرصُهم الأبله على التفلت من الأحكام التي شرعها الله.

هذا – كما أسلفنا – توجيه واضح للأمة، على مدى العصور وحتى يرث الله الأرض ومن عليها، بأن تأخذ حذرها من هذا الخطر الماحق الذي تتعدد ألوانه، ومداخله في هذا العصر وإنه لتوجيه يجعل البعد عن الغفلة

ضرورة من ضرورات المواجهة مع المغضوب عليهم – وكم نرى على صعيد الواقع من ضحايا، في ميادين الثقافة والفكر وفلسفة التاريخ!!!

وقد جاء تأكيد ذلك على صعيد التعامل يومذاك، بواحدة من وقائع يهود ومحاولاتهم الماكرة، ليفتنوا رسول الله ﷺ عن دينه الذي ارتضاه الله – وما أكثر ما حاولوا في الماضي ويحاولون في الحاضر فتن المسلمين واستدراجهم إلى التوجه الفاسد – جاء تأكيد ذلك، فيما دلت عليه الآيتان التاسعة والأربعون والخمسون من سورة المائدة من فضح تآمرهم، والتنبيه عليه، والتحذير منه؛ فبعد أمرِ الله تعالى رسولَه ﷺ بأن يحكم بما أنزل الله، ونهيه إياه عن اتباع أهوائهم، جاء قوله تعالى: ﴿ ... **وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾** ﴾ [المائدة: ٤٩ – ٥٠].

وروى الطبري شيخ المفسرين بسنده عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه قال: قال كعب بن أسد، وابن صوريا، وشاس بن قيس، بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه !! فأتوه فقالوا: يا محمد إنك قد عرفت أنا أحبار يهود، وأشرافهم وساداتهم وأنا إن اتبعناك اتبعنا يهود ولم يخالفونا، وأن بيننا وبين قومنا خصومة، أفنحاكمهم إليك، فتقضي لنا عليهم، ونؤمن لك ونصدقك؟ فأبى رسول الله ﷺ فأنزل الله فيهم: ﴿ **وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ** ﴾ [المائدة: ٤٩] إلى قوله: ﴿ **لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾

ورواه ابن أبي حاتم وابن إسحاق غير أن في رواية ابن إسحاق لهذه الواقعة، التي هي سبب نزول الآيتين زيادة (ابن صلوبا) على أسماء اليهود الثلاثة الذين ورد ذكرهم في رواية الطبري؛ ففي سيرة ابن هشام: قال ابن إسحاق: وقال كعب بن أسد وابن صلوبا وعبد الله بن صوريا وشاس بن قيس بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه فإنما هو بشر، فأتوه فقالوا: «يا محمد إنك قد عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم وسادتهم، وإنا إن اتبعناك اتبعتك يهود ولم يخالفونا، وأن بيننا وبين بعض قومنا خصومة، أفنحاكمهم إليك، فتقضي لنا عليهم، ونؤمن بك ونصدقك؟ فأبى ذلك رسول الله ﷺ عليهم. فأنزل الله فيهم: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

[المائدة: ٤٩، ٥٠].

هكذا أراد هؤلاء الأربعة وهم من أحبار اليهود وأشرافهم وساداتهم، أن يفتنوا رسول الله ﷺ، فيصدوه عن بعض ما أنزل الله إليه من الأحكام في الكتاب العزيز، ويحملوه على اتباع أهوائهم وضلالتهم! لقد رضي هؤلاء الخونة لدين الله – وهم على ما هم عليه من المكانة في العلم والشرف والسيادة – أن يقوموا بهذه المحاولة المنكرة، فيعدوا رسول الله بالإيمان به وتصديقه إن هو قضى لهم – كما يريدون – على خصومهم حين يتحاكمون إليه ... أرادوا منه أن يفعل ذلك اتباعاً لأهوائهم، ولو كان في قضائه مخالفة لماجاء به الفرقان الحكيم. ثم أي إيمان هذا الذي

سيدخلون في حظيرته بادئين بالتوجه نحوه – على زعمهم – بالخديعة والعمل على صد رسول الله ﷺ عن مقتضاه؟؟ إنها المساومة الباردة، والعبث الرخيص، وكم في هذا الموقف وأمثاله من عبرة تكشف عن الانحراف المتأصل عند اليهود لمن أراد أن يعتبر.

لقد أرادوا المتاجرة، بكونهم في الذروة من المجتمع اليهودي – فهم أحبار يهود وأشرافهم وساداتهم – وبما يترتب على ذلك، من أنهم إذا آمنوا برسول الله، اتبعهم يهود ولم يخالفوهم... ومن هذه الركيزة في المساومة، انطلقوا إلى ضلالة الوعد بالإيمان والتصديق، إن قضى رسول الله لهم على خصومهم حين يحتكمون إليه، والواقع أنهم لا يريدون إيماناً ولا تصديقاً، ولكن يريدون فتنة رسول الله ﷺ – وهو ما اتفقوا عليه – بصده عن الحق الذي جاء به الوحي، إلى الباطل الذي يبتغون، كان ذلك على طريقة اليهودي في عبادة المال والاتجار الرابح، مهما كان في كسب المال المطلوب من إثم وضلال... إذ جرى هؤلاء المفاوضون بما عرضوا على رسول الله ﷺ، على واحدة من طرائقهم الملتوية في الكسب والاحتيال، متبعين قياساً فاسداً، يأملون من ورائه الوصول إلى غاية أفسد منه.

ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام اتخذ الموقف الذي يتسق مع عظمة الرسالة، فأبى عليهم قبول شيء مما كانوا يبتغون.

اللهم صلِّ على عبدك ورسولك، والأمين على وحيك وعلى آله وصحابته وسلِّم تسليماً كثيراً، وزد اليهود خزياً على ما اجترحوا في جنب الحق والهدىٰ، وما يجترحون.

من صور المكر والمخادَعة..
وأحقية ما يقول القرآن

لعل من نافلة القول، أن نذكر بأن ما كشفت عنه آي الكتاب العزيز والسنة المطهرة من خلائق اليهود في عدوانهم على الحق، وتجاوزهم - في سبيل ما تسول لهم أنفسهم وتزين أهواؤهم وشياطينهم - قيم الدين والأخلاق جميعاً، أن نذكر بأن الوقائع المتكررة منهم على صعيد الفرد والمجتمع، كانت أدلة لا تحتمل الشك على أحقية ما جاء به القرآن وسنة النبي ﷺ، وزخرت به السنون من سيرته المطهرة... بل يمكن القول بأن الوقائع المومى إليها، ليست قصراً على عصر النبي ﷺ، بل منذ تلك الحقبة المباركة وحتى يوم الناس هذا، تقوم تصرفات يهود شاهد يقين، على أن ما قاله القرآن فيهم وبينته سنة الرسول عليه الصلاة والسلام، هو الحق الذي لا مرية فيه... ولكن على المسلمين أن يدوروا مع القرآن حيث دار، وأن يصحبوا حديث النبي عليه الصلاة والسلام وسيرته، صحبة إيمان وحرص على العمل والانتفاع... وأن يذكروا الوقائع ويعوا دلالاتها؛ فذاكرة التاريخ لا تنسى، واليهود الذين أحاط بهم سيئات ما مكروا، وباؤوا بغضب على غضب، لا يفتؤون يمكرون بالمسلمين، ويناصبونهم العداء في السر والعلن على كل صعيد وفي كل ميدان.

أقول هذا وقد وقفنا من قريب على واقعة كانت سبب النزول لآيتين كريمتين من سورة المائدة، هما قول الله تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ

اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ [المائدة: ٤٩، ٥٠] وكنا – بدلالة سبب النزول – وقفنا على مكيدة دبرت بليل، شحذ بها بعض زعماء اليهود وسادتهم أذهانهم، وبيتوا ما بيتوا من المكر والضلالة، في سبيل أن يفتنوا رسول الله ﷺ، فيصدوه عن الحق الذي يدعو إليه.. وسعوا إليه، وعرضوا عليه ما أرادوا... وكانت الوقفة النبوية التي تعتمد الحق – الذي نزل به الكتاب – وسيلةً وغايةً.. إذ صدهم عليه الصلاة والسلام – وهو صاحب البصيرة الموحى إليه – ولم يُجبهم إلى شيء مما طلبوه، لأن ما طلبوه كان الضلالَ بعينه والمُعاذ الله. فكانت هذه الواقعة سبب نزول الآيتين المومى إليهما.

وتبيُّنُ مدى الارتباط بين صنيع اليهود في تلك الواقعة التي كانت سبب نزول الآيتين، وبين ما وجه إليه القرآن الكريم – إذ كشف عن مبتغاهم وما يمكرون – يقود إلى العودة إلى النص الذي رواه الإمام الطبري وابن حاتم ورأيناه عند ابن إسحاق بزيادة واحد على عدد المتآمرين، قال أبو جعفر: حدثنا أبو كريب قال: حدثنا يونس بن بكر عن محمد بن إسحاق قال: حدثني محمد بن أبي محمد مولى زيد ابن ثابت قال: حدثني سعيد بن جبير أو عكرمة، عن ابن عباس قال: قال كعب بن أسد وابن صوريا وشاس بن قيس بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه! فأتوه فقالوا: يا محمد، إنك عرفت أنا أحبار يهود، وأشرافهم وساداتهم، وأنا إن اتبعناك، اتبعنا يهود ولم يخالفونا، وأن بيننا

وبين قومنا خصومة!! أفنحاكمهم إليك، فتقضي لنا عليهم، ونؤمن لك ونصدقك فأبى رسول الله ﷺ فأنزل الله فيهم: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ وفي رواية ابن اسحاق التي نجدها في سيرة ابن هشام، زيادة واحد على الثلاثة المذكورين هنا – كما ذكرنا آنفاً – هو ابن صلوبا.

والدرس الذي ما بدٌّ أن يكون أهل الحق على ذكر منه – وما أكثر العظات والدروس في مواقف الرسول عليه الصلاة والسلام – أنه ﷺ، وهو يواجه أولئك الرهط من اليهود الذين مردوا على الضلال، وأتقنوا صناعة المكر ولبس الحق بالباطل في زخرف من القول، ووضع للمعرفة في خدمة الهوى والانحراف، ولم يكتفوا بالكفر مع قيام الدليل على وجوب الإيمان بما جاء به محمد من كتابهم... أنه ﷺ لم يتزحزح قيد أنملة عما تمليه الرسالة الهادية التي حملها إلى الناس، ولا أعطى من نفسه، ولو الشيء اليسير، مما يعتبر خروجاً على الحق غاية ووسيلة.. فالغاية لا تسوغ الوسيلة، بل لابد من نظافة الوسيلة وطهرها، لتتسق مع عظمة الغاية وسموها.. وإذا كان الأمر كذلك: فكيف يرضى أن يجور في القضاء – وهذا حكم بغير ما أنزل الله – من أجل أن يدخل هؤلاء في الدين الذي يأمر بالحكم بما أنزل الله، وينهى عن المحاباة في الحق. مهما كانت الظروف والملابسات؟.

ويقتضيني المقام أن أؤكد ما أشرت إليه سابقاً، من سمو منهج المصطفى ﷺ، وما يقابله من تفاهة ما طلب أولئك المتنفذون المثقفون

من اليهود – كما يزعمون – منه صلوات الله وسلامه عليه – دونما أثارة من حياء أو أدبٍ حديث – أن يتبع أهواءهم ويخالف ما يقتضيه الإيمان، ليكون ذلك حافزاً إلى الدخول في حظيرة ذلك الإيمان – على حد زعمهم –.

ولقد كان من عظيم فضل الله وإنعامه على الأمة المحمدية، أن أنزل في تلك الواقعة اليهودية وأمثالها قرآناً يتلى، ورأينا الاتساق الكامل بين ما أراده القرآن وبين ماكان من سيد العالمين عليه الصلاة والسلام.

وشكر المسلمين لهذه النعمة العظيمة، أن يخضعوا عقولهم وقلوبهم ومنهج سلوكهم، للكلمة الهادية في هذا الكتاب، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وفي السنة التي هي بيانه... إنهم إن حملوا أنفسهم على الجادة في ذلك، استنارت سبيلهم، واشتد أزرهم وقدروا – بعون الله – على أن يكونوا سادة الموقف في صراعهم مع اليهود وأعوان اليهود، ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمد: ٧].

يُصيبهم ببعض ذنوبِهم

النظرة المتدبرة الواعية إلى ماكان من جراءة أولئك النفر الثلاثة أو الأربعة من أحبار اليهود وزعمائهم، على المحاولة الباغية في فتْن النبي ﷺ عن منهجه في أداء الرسالة الخاتمة، بأن يتحول عن الحكم بينهم بما أنزل الله، إلى الرضى بما زينت لهم أهواؤهم والتحذير الشديد الذي حملته الآيات الكريمات من ذلك... هذه النظرة المباركة، حرية بأن تبصر المسلم بما ينبني على ذلك من وجوب اليقظة والحذر، وأخذ الحيطة من تنوع المحاولات وتطور الأساليب في العمل على تحويل المسلمين عن منهج الرحمن، إلى اتباع خطوات الشيطان؛ فيما يدبر اليهود وأعوانهم وما يمكرون. ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾.

وغير خاف أن هذا الأمر بالحكم بينهم بما أنزل الله، تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك، والنهي عن خلافه. وهذا من بلاغة القرآن الكريم، وشديد العناية بالوقوف عند حدود الله فيما يأمر به سبحانه وفيما ينهى عنه، وبخاصة حين يكون لليهود – وهم المعروفون بمكرهم ومحاولاتهم الضالة – علاقة بالحكم المراد. وفي ذلك قطع لدابر المحاولات التي يبرزها تطور الأساليب، وزخرف المصطلحات والأسماء !!

ثم بهذا الوضوح الذي ما بعده وضوح ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ﴾ احذرهم أن يفتنوك فيصدوك عن بعض ما أنزل الله إليك من محكم

كتابه، فيحملوك بما يزخرفون ويزينون على ترك العمل به أو ببعضه، واتباع أهوائهم التي تنضح بالعداء للإسلام، والحق الذي حملته إلى الناس رسالة الإسلام.

وجميل ما قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله – عند هذه الآية: «احذر أعداءك اليهود أن يدلسوا عليك الحق فيما ينهونه إليك من الأمور، فلا تغتر بهم، فإنهم كذبة خونة».

ثم جاء التنبيه الصراح على أن هؤلاء اليهود الذين اختصموا إلى النبي عليه الصلاة والسلام: إن تولوا عنه، فتركوا العمل بما حكم به عليهم وقضى فيهم؛ فذلك من سوء طالعهم، لأنه عنوان أن الله يريد أن يصيبهم ببعض ذنوبهم، عقاباً لهم وأخذاً بما يجترحون من مآثم التناقض بين الدعوى والعمل: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ أجل: إن الله تعالى لا يظلمهم، وأخذُهم بالعقوبة حاصلٌ ببعض ذنوبهم وذلك كائن عن قدر الله وحكمته فيهم، أن يصرفهم عن الهدى لما عليهم من الذنوب السالفة التي اقتضت إضلالهم ونكالهم. ولقد كان من تأويل شيخ المفسرين – رحمه الله – لهذه الكلمات المستنيرات..... (فاعلم أنهم لم يتولوا عن الرضى بحكمك، والطمأنينة لصنيعك – وقد قضيت بالحق – إلا من أجل أن الله يريد أن يتعجل عقوبتهم في عاجل الدنيا، ببعض ماقد سلف من ذنوبهم).. سبحان الله... ببعض ما قد سلف من ذنوبهم، وليس بكلها وما أكثرها !! وقد ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ قال أبو جعفر:

(يقول: وإن كثيراً من اليهود لفاسقون، يقول: لتاركو العمل بكتاب الله ولخارجون عن طاعته إلى معصيته).

هذا: واللفظ، وإن كان عاماً يشمل الخارجين عن الطاعة من غير اليهود كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣] ولكنه ينبئ عن حقيقة تشي بأن الغالب على اليهود - كما يخبر القرآن الكريم ويسعف في ذلك سبب النزول - ترك العمل بالكتاب المنزل، والخروج عن الطاعة إلى العصيان السافر، مع دعواهم العريضة أنهم أهل التوراة، العاملون بها، الوقافون عند حدودها. وتراهم اليوم يستخدمون هذا الانتساب إلى التوراة والعبرية سلاحاً في العدوان على المسلمين، واغتصاب أرضهم ومقدساتهم، والإزراء بهم في العالمين!!

ومهما يكن من أمر: فإن الواقعة التي كانت سبب النزول، وأشباهها من الوقائع التي حدثت على صعيد التعامل بينهم وبين المسلمين في عصر النبوة أيام السلم والحرب، تدل دلالة قاطعة على أنهم كانوا يجمعون إلى ترك العمل بالكتاب المنزل على موسى عليه السلام، والخروج عن الانقياد لحكم الله إلى العصيان والضلال البعيد... يجمعون إلى ذلك المحاولة من قبل أحبارهم وزعمائهم التي تهدف بجراءة باردة هابطة، إلى فتن النبي ﷺ عن بعض ما أنزل الله إليه.

أما بعد: أليس هذا الذي نحن بصدده في شأنهم، واحداً من الأدلة الناطقة بأن شكوى أمتنا من اليهود، دونما استنارة بحقائق الخبر الصادق، ووقائع التاريخ، تحمل نوعاً من العبث وغض الطرف عن فهم التحديات

من جذورها، وما ترتد إليه من بواعث لا تزيدها الأيام إلا حقداً ومكراً بالغَيْن؟؟

ودلالة ذلك أيضاً على أن بُعد الأمة عن الأخذ بمنهج الدين الحنيف: من المقاتل المهلكة، بل من أمضى الأسلحة التي ينتفع بها اليهود على ساحة المواجهة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾

كان موقف النبي ﷺ – وهو الأسوة الحسنة للمؤمنين – في مواجهة التآمر المغري، ومحاولة فتنه – عليه الصلاة والسلام – عن بعض ما أنزل الله إليه، موقفَ الصدق الذي لا يجارى، والشجاعةِ التي لا يقدر قدرها، والحرصِ البيِّن على الحكم بما شرع الله وأنزل؛ فلم يتزحزح – فداه أبي وأمي – أمام العرض الماكر الذي عرضه اليهود على لسان ثلاثة أو أربعة من كبرائهم هم: كعب بن أسد وابن صلوبا، وعبد الله بن صوريا، وشاس بن قيس، حين قالوا – كما روى ابن إسحاق عن ابن عباس – رضي الله عنهما –: يا محمد إنك قد عرفت أنا أحبار يهود، وأشرافهم، وساداتهم، وإنا إن اتبعناك اتبعَنا يهود ولم يخالفونا، وإن بيننا وبين قومنا خصومة – أو حكومة – فنحاكمهم إليك، فتقضي لنا عليهم، ونؤمن لك ونصدقك، فأبى ذلك رسول الله ﷺ، فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿ **وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ...** ﴾.

والعهد قريب بما رأينا من روايات تؤكد أنه عليه الصلاة والسلام، واجه غير مرة محاولات من يهود، بغية تحويله عن الحق المنزل من عند الله إلى ما تصنعه أهواؤهم، وتزينه رغباتهم الآثمة، وكان منه – صلوات الله وسلامه عليه – الثبات العظيم على الحق، ذلك الثبات الذي بات أمانة في أعناق الأجيال من أمتنا – كلٌ حسب موقعه – أن يكون عند هذا الذي

فعله وهو صاحب الرسالة الذي طاعته من طاعة الله، مهما داخل أساليب المحاولة من التطوير، وشابها من الزخرف والتمويه!!

ومن الروايات التي تزيد الأمر وضوحاً، ويفترض أن ينتفع بها المسلمون لواقعهم في تحديد المنطلقات والضوابط، ما أخرج أحمد وأبو داود – واللفظ له – وأبو جعفر الطبري عن الإمام الزهري قوله – رحمه الله –: سمعت رجلاً من مزينة ممن يتبع العلم ويعيه – ونحن عند ابن المسيب – عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: «زنى رجل من اليهود بامرأة فقال بعضهم لبعض: اذهبوا إلى هذا النبي فإنه بعث بالتخفيف، فإن أفتانا بفتيا دون الرجم قبلناها واحتججنا بها عند الله، قلنا: فتيا نبي من أنبيائك، قال فأتوا النبي ﷺ، وهو جالس في المسجد في أصحابه، فقالوا: يا أبا القاسم، ما تقول في رجل وامرأة منهم زنيا؟ فلم يكلمهم كلمة حتى أتى بيت مدراسهم، فقام على الباب فقال: أنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى، ما تجدون في التوراة على من زنى إذا أحصن؟ قالوا: يحمَّم، ويجبَّه، ويجلد. والتجبيه أن يحمل الزانيان على حمار وتقابل أقفيتهما، ويطاف بهما. قال: وسكت شاب منهم، فلما رآه رسول الله ﷺ سكت، ألظَّ به رسول الله ﷺ النّشدة. فقال: اللهم إذ نشدتنا، فإنا نجد في التوراة الرجم. فقال النبي ﷺ: ما أول ما ارتخصتم أمر الله؟ قال: زنى ذو قرابة من ملك من ملوكنا، فأُخِّر عنه الرجم، ثم زنى رجل في أثره من الناس، فأردنا رجمه، فحال قومه دونه، وقالوا: لا يرجم صاحبنا حتى تجيء بصاحبك فترجمه!! فاصطلحوا هذه العقوبة بينهم. فقال النبي ﷺ: «فإني أحكم بما في التوراة». فأمر بهما فرجما». قال

الزهري: فبلغنا أن هذه الآية نزلت فيهم: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا...﴾ [المائدة: ٤٤]. فكان النبي ﷺ منهم.

ألظَّ النشدة: ألح بالسؤال والمناشدة.

وهذا يقودنا إلى وقفة مع الآية الخمسين من سورة المائدة التي تلت تلكم الآيات، والتي حذرت النبي ﷺ من مكر يهود ومحاولتهم فتنه عن بعض ما أنزل الله إليه وتوعدت على الحكم بغير ما أنزل الله، والآية هي قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٥٠].

أرأيت إلى هذا الاستفهام الإنكاري الذي يحمل الكثير من التوبيخ والتقريع لليهود! حيث يعود الضمير في فعل «يبغون» إليهم؟ جاء ذلك في مقابل دعواهم العريضة أنهم مؤمنون أهل كتاب يرضون بحكم الله، وهم في الحقيقة تاركون لأي لون من ألوان العمل بكتاب الله الذي يظهرون التفاخر بالانتماء إليه، خارجون عن طاعة الله إلى المخالفة عن أمره في شؤونهم كلها!! أيبغي هؤلاء اليهود الذين احتكموا إليك، أو أرادوا الاحتكام - والخطاب للنبي ﷺ - فلم يرضوا بحكمك إذ حكمت بينهم بالقسط الذي يأمر به الكتاب المبين، أو عرفوا أنك ستحكم كذلك مخالفاً هواهم... أيبغون حكم الجاهلية وهي أحكام عبدة الأوثان من أهل الشرك، وأحكام الطواغيت الخارجين على الحق والعدل، المظاهرين للباطل والظلم، وعندهم كتاب الله المنزل وحياً من السماء، فيه بيان حقيقة الحكم الذي حكمت به فيهم، وأنه الحق الذي لا يجوز خلافه، ولا يجد المؤمن طمأنينته وانشراح صدره إلا معه؟

وتنتقل بنا الآية الكريمة إلى مزيد من الإنكار وشديد اللوم لمدعي الحرص على العمل بالتوراة، وبيان استهتارهم المخزي بعدم قبولهم حكم رسول الله ﷺ بينهم – وهو الحكم المشتمل على كل خير، المباعد عن كل شر – واستهجان ذلك منهم.. فيقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾. أي من هذا الذي هو أحسن حكماً أيها اليهود، مدعو الإيمان واليقين، من الله العليم الخبير بما يصلح عباده ويضمن لهم سعادة الدنيا والآخرة، عند من كان يوقن بوحدانية الله، ويقر بربوبيته، وأنه سبحانه الخالق المدبر الذي يجب أن يطاع ويسلم لحكمه تسليماً؟

إنه الأسلوب القرآني الحكيم، في إقامة الحجة على أولئك المغضوب عليهم، وعلى كل من ينتهج سبيلهم في الإعراض عن حكم الله مع دعوى اليقين بوحدانيته – جل شأنه – والإقرار بربوبيته، يقول تعالى: أي حكم أحسن، أي حكم أعدل من حكم الله إن كنتم موقنين حقاً أن لكم رباً، وكنتم أهل توحيد وإقرار به وخضوع لما يريد؟

هذا: وقد أيد شيخ المفسرين ما ذهب إليه الجمهور – وهو في مقدمتهم – من أن الذين وجه إليهم الإنكار والتوبيخ في الآية هم اليهود، بروايات ثلاث عن مجاهد – رحمه الله –، أورد كلاً منها من طريق، حيث يقول مجاهد في قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ يهود.

على أن الذي نحوِّم حوله، وإن كان المقصود به أولاً وبالذات اليهود – كما أوضحنا – لما أن صنيعهم هو سبب النزول ومعهم النصارى، إلا أن الإنكار الشديد الذي يحمل ما يحمل من التوبيخ والتقريع ينجر –

بدلالة عموم اللفظ – على كل من اتخذ سبيلهم سبيلاً، ورضي لنفسه حكم الجاهلية والضلال، مع دعوى اليقين بوحدانية الله تعالى وأنه رب العباد، خالقهم ومدبرهم، والمتصرف بشؤونهم، والماضي فيهم حكمه، العدل فيهم قضاؤه... وعدم إنكار أنه أعلم بما يصلحهم. وإذا كان الأمر كذلك: فأي داهية دهت المسلمين – إلا قليلاً – في مخالفة ما دعت إليه الكلمة القرآنية الهادية من الحكم بما أنزل الله، ثم الاحتكام بدلاً عن ذلك إلى حكم الجاهلية الذي جنت الأمة من ورائه ما لايحصى من ألوان الضعف والهوان؟!

ومن نافلة القول، التذكير بأن هذه الحقيقة التي تقض مضاجع المخلصين، تزيد من مسؤولية الجميع كلٌّ حسب موقعه – دون استثناء – في العمل على إعادة الأمر إلى نصابه، وبذل كل مستطاع لاستئناف الحكم بما أنزل الله في دنيا المسلمين وفقاً للمنهج الرباني بعمقه وشموله شؤون الحياة كلها ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

ولعل من الخير إيراد ما قاله الحافظ ابن كثير حول الآية، لأن فيه – مع بيان المعنى – تجلية الصورة الحقيقية للعالم العامل، الذي يجمع إلى الغيرة على الشريعة معرفة الواقع، والتنبيه على مخاطر العدول عن حكم الله إلى حكم الجاهلية التي قوامها المخالفة عن منهج الله سبحانه.. قال – رحمه الله –: (ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء، والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان

أهل الجاهلية يحكمون؛ من الضلالات والجهالات، مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية الماخوذة من ملكهم جنكيز خان. الذي وضع لهم اليَساق – وهو قانون المعاملة – وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتسبها من شرائع شتى؛ من اليهودية والنصرانية، والملة الإسلامية، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت في بنيه شرعاً متبعاً، يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ. ومن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله، حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير. قال الله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ أي يبتغون ويريدون، وعن حكم الله يعدلون ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه، وآمن به وأيقن، وعلم أنه تعالى أحكم الحاكمين، وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها، فإنه تعالى هو العالم بكل شيء، القادر على كل شيء، العادل في كل شيء) وقد روى ابن أبي حاتم عن الحسن البصري قوله: «من حكم بغير ما أنزل الله – فكم الجاهلية» كما روى عن طاوس أنه كان إذا سأله رجل: أفضِّل بين ولدي في النَّحْل؟ قرأ: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ الآية. وقد أورد الحافظ ابن كثير بعد هذا ما روى أبو القاسم الطبراني بسنده عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أبغض الناس إلى الله عز وجل مبتغ في الإسلام سنة الجاهلية، وطالب دم امرئ بغير حق ليريقَ دمه» ثم قال: وروى البخاري عن أبي اليمان بإسناده نحوه..

اللهم جنب أمتنا مزالق اليهود والنصارى، وخذ بيدها إلى حيث تكون أهلاً لتوفيقك ونصرك، كيما تدور مع القرآن حيث دار، ولا ترضىٰ به بدلا، ولا تبغي عنه ولا عن بيانه من السنة المطهرة حولاً..

مخالفة العمل لدعوى التوحيد...

والوعيد الشديد

في رحلتنا القصيرة المباركة مع الآية الخمسين من سورة المائدة وهي قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ رأينا – كما قرر الإمام الطبري ورواه عن مجاهد – أن الذين وجه إليهم الإنكار، وجوبهوا بالتقريع والتوبيخ هم اليهود.. الذين يقفون – على المدى – موقف التناقض بين الدعوى والعمل؛ فهم يدعون أنهم موقنون أن لهم رباً، هو الخالق الحكيم المدبر الذي يجب أن يطاع فيما يأمر وفيما ينهى، وأنهم أهل توحيد وإقرار به وبكل ما يترتب على هذا الإقرار.. وفي الوقت نفسه، تراهم يعرضون عن حكم الله في أي شأن من شؤونهم ويعدلون عنه إلى غيره من الأحكام الضالة التي لا صلة لها بالحق والعدل، يقفون هذا الموقف، وهم يعلمون أن حكم الله هو الحكم المشتمل على كل خير، الناظم لكل ما هو حق وعدل.

لقد أنكر الله عليهم بقوله «أفحكم الجاهلية يبغون» يبتغون ويريدون وعن حكم الله يعدلون، ثم قرَّعهم بالكشف عن تناقضهم حيث الدعوى بجانب، والعمل بجانب، فقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ والحق أنه لا أعدل ولا أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون.

ولئن كان الأمر واضحاً في شأن اليهود، إنكاراً عليهم وتقريعاً لهم

على إعراضهم عن حكم الله مع دعواهم العريضة على ساحة الإيمان واليقين... فإن مضمون الآية الكريمة، يتعداهم إلى كل من يقع فيما وقعوا فيه من التناقض بين دعوى الإيمان والعمل، ويرضى أن يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، فيبغي حكم الجاهلية، معرضاً عن حكم الله الذي يتمثل فيه العدل المطلق والحق الذي لا مرية فيه.

وجميل ما ذهب إليه الحافظ ابن كثير في تفسيره للآية الكريمة، إذ كان على ذكر من الواقع في عصره، وأن هداية القرآن تحمل المنهج الصالح لتغيير الواقع السيء وإنشاء واقع جديد يتفق وشرعة الإسلام أن لو وجد الإيمان والعمل. فعلة الإنكار على اليهود ما كان من سوء صنيعهم في توليهم عن حكم الرسول ﷺ وهو الحكم الذي نزل به الكتاب المبين، متجاهلين أن هذا الموقف يتنافى التنافي كله مع ما يدعون من أنهم أهل التوحيد المقرون بربوبية الله عز وجل وأنه المالك المتصرف في ملكه سبحانه، وأن على العباد الخضوع لحكمه لأن ذلك طريق سعادتهم في الدنيا ويوم الدين.

فإذا وجدت تلك العلة في غيرهم، طالهم الإنكار واستحقوا ما حملت الآية الكريمة من توبيخ وتقريع على ما وقعوا فيه من هوة التناقض، حيث الانهدام السحيق بين دعوى اليقين والسلوك.

وهكذا يرى العلماء الناصحون، أن في الآية إنكاراً على من خرج عن حكم الله، الحكم المشتمل على كل خير الناهي عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة

الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات التي يضعونها بآرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات المأخوذة عن حاكمهم جنكيز خان الذي وضع لهم الياسق - على حد قول ابن كثير - وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها عن شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت في بنيه شرعاً متبعاً، يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.. ثم حكمَ - رحمه الله - على من فعل ذلك بالكفر، وأنه يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، والحق أن التردي في تلك المهواة اليهودية طامَّة كبرى لا تجني الأمة من ورائها إلا التشتت والضياع.

وعند قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ قال ابن كثير: (أي ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه وآمن به وأيقن، وعلم أن الله أحكم الحاكمين، وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها فإنه تعالى هو العالم بكل شيء، القادر على كل شيء، العادل في كل شيء).

هذا: ولعل من الخير، أن لا نغادر القول في الآية الكريمة، حتى نشير إلى أن هنالك بعض الروايات التي تحمل سبب نزول للآية غير الذي مر بنا من قبل، في قصة أولئك الثلاثة أو الأربعة من اليهود على أنه لا مانع - كما يقول العلماء - من أن يكون للآية أكثر من سبب نزول، خصوصاً وأن المحور واحد وهو إعراض اليهود عن حكم الله تعالى،

واللجوء إلى الأساليب الماكرة في التفلت منه، مع غطرستهم التي تقوم على زعم أنهم هم أهل الكتاب الذين يدرون عن الدين ما لايدري غيرهم، ويفقهون من الأمور المتعلقة بشريعة الله ما لايفقه سواهم، وأنت واجد أن كل رواية في سبب النزول لآية أو آيات من هذا القبيل تضع أيدينا على واقعة ظالمة اجترحها بعض أولئك المغضوب عليهم على وجه اليقين، والكثرة الكاثرة راضية عن الانحراف فلا تذكير بدين ولا تناهيَ عن منكر. والحمد لله رب العالمين.